من ملاحم الاستشهاد البطولي في وادي الفرات

ملحمة عين البوجمعة

((كان قد سافر الكولونيل فانيار إلى « الرقة » بطريق البادية برفقة ضابط آخر ولكنه اختفى في الطريق ولم يصل الأفكار وأرسلت طيارة للاستكشاف فشاهدت السيارة التي كانت تقلهما فارغة وسائقها مذبوح وأما القائدان فلم تعثر لهما على أثر أرسلت القوى والسيارات المصفحة إلى هناك .))

جريدة العرض البيروتية - صيف عام ١٩٢٥

عين البوجمعة ملحمة تاريخية تدعو إلى الفخر والاعتزاز ، تحمل مضموناً بطولياً ومثلاً في التضحية والاستبسال ، أبطالها من أبناء الفرات الذين سجلوا صفحات رائعة في سجل النضال الوطني . لقد عز على منطقة الفرات أن تتحمل منطقة جبل العرب لوحدها عبء الثورة فتمت اتصالات بين زعماء الثورة السورية الكبرى وبعض الوطنيين من أبناء الفرات منهم محمد العياش الذي اجتمع في دمشق مع عبد الرحمن الشهبندر زعيم حزب الشعب والمستشار السياسي لقائد الثورة السورية الكبرى وبحث معه موضوع مد الثورة إلى منطقة الفرات من أجل تخفيف الضغط على مركز الثورة في جبل العرب وفتح جبهة ضد الفرنسيين لتشتيت قواتهم وبالتالي عدم زجها ضد منطقة معينة .

عاد محمد العياش من دمشق وبدأ يعد العدة بإثارة غيرة وحماسة المخلصين من أهالي الفرات ، واتفق مع أخيه محمود العياش على أن يذهب إلى قرى قبيلة البوسرايا غربي دير الزور وأن يشكل مع أصدقائه هناك أنصاراً يرضون بالعمل من أجل الثورة بشكل مجموعات ثورية ، وبالفعل استطاع أن يؤسس خلية مؤلفة من اثني عشر رجلاً مسلحاً كانوا على أهبة الاستعداد للقيام بأي عمل عسكري ضد الفرنسيين وهم : ١- محمود العياش من دير الزور ٢- حمكي علي العيد السلامة ٣- عزيز علي العبد السلامة ٤- حاج علي العبد السلامة ٥- حسن العبد السلامة ٦- حمزة العبد السلامة ٧- اصلبي المسعود العبد الجليل ٨ - خلف الحسن المحمد ٩ - أسود الحمدان ١٠ - أحمد الحسن الملقب (طعوس) ١١ - حميد السلطان ١٢- عبد الله الخلف الإبراهيم ١٣ - حمد بن رديني .

كان لمحمد العياش لوجاهته في دير الزور احترام وتقدير ، وكان بعض الأشخاص يعملون مع الفرنسيين في مراكز الترجمة وغيرها يأتون له بالأخبار عن أوضاع وتحركات الفرنسيين ونشاطاتهم .

والتي صادفتهم في طريقهم للتواري عن الأنظار عن بعد تنفيذ العملية حيث أعلمت الفرنسيين بأسمائهم وانتمائهم القبلي ، تحركت قوة عسكرية كبيرة اشتركت فيها المدافع والطائرات ، وطوقت عشيرة البوسرايا ، وقامت ستة عشر طائرة فرنسية بقصف منازل العشيرة قصفاً مدمراً . تهدمت البيوت على رؤوس الأطفال والنساء واشتعلت النيران في السيابيط وأحرقت البيادر والمحاصيل الزراعية ، وهلكت الماشية فكان قصفاً مرعباً ومدمراً والخسائر جسيمة بالأرواح والمادة ، كل ذلك من أجل الضغط على الأهالي لتسليم الثوار ، وقد سقط نتيجة لهذا القصف بعض الشهداء نذكر منهم أسماء ما استطعنا الحصول عليه وهم : ١- حنش الموسى العاني ٢- علي النجرس ٣- امرأة حبلى لم نستطيع الحصول على اسمها وقد خرج جنينها من بطنها بعيداً عن جثتها ومن الجرحى العشرات الذين أصيبوا بالرصاص الغادر وبشظايا قنابل الطائرات حتى أن ما زالت حية وتسكن مدينة الرقة قد تشوه وجهها نتيجة حرق أصابها من حمم الطائرات وهي شاهدة حية على البربرية الفرنسية .

وعندما اقتنع الفرنسيون بأن القصف لا يجدي لجؤوا إلى وسيلة دنيئة فيها الكثير من الخسة والنذالة حيث بدؤوا يبثون الأخبار بأن الفرنسيين سوف يجمعون نساء الثوار وأمهاتهم وأخواتهم ويعتقلونهن في سجونهم حتى يسلم الثوار أنفسهم للفرنسيين . عندما وصل الخبر إلى الثوار وقع عليهم كالصاعقة لأن شرف العربي تهون دونه المهج والأرواح ، إنها خسة ما بعدها خسة ، وعندما تدارس للتضحية بأرواحهم ولا أن تهتك أعراضهم أو تهان . خرجوا من مخابئهم وحطموا بنادقهم وسلموا أنفسهم وهم مرفوعو الرأس فسلمت العذارى والنساء من الغدر المبيت .

وبعد تحقيق طويل استخدم فيه الجلادون أبشع أنواع التعذيب انتقلت روح أحد الثوار وهو حسن العبد السلامة الملقب (الوليفي) إلى بارئها فداء للوطن والشرف والكرامة ، كما نفيت أسرة عياش الحاج (والد محمد ومحمود العياش) إلى جبلة ، وقد صدر قرار النفي في ٥ آب ١٩٢٥ من المفوض السامي الفرنسي سراي تحت رقم ٤٩ / س وفي الوقت الذي كانت فيه السيارات تقل أسرة اعياش الحاج إلى منفاها في جبلة كانت سيارة مصفحة فرنسية تقل الثوار إلى حلب لمحاكمتهم وهم مصفدين بالحديد وعلى أجسادهم آثار التعذيب ، وفي حلب أجريت لهم محاكمة عسكرية ، وكانت أسرة عياش الحاج قد كلفت المحامي الحلبي فتح الله صقال للدفاع عن لبنهم لقاء ١٠٠ ليرة ذهبية .

وفي أحد الأيام أخذ منهم علماً بأن فرنسية تقل ضباطاً فرنسيين تغادر دير الزور في طريقها إلى حلب وأعلم الثوار بذلك . عندها بدأ هؤلاء يتحينون الفرصة للإيقاع بهؤلاء الضباط وقتلهم ، وبعد استقصاء الأمكنة على الطريق كمن الثوار في موقع عين البوجمعة على طريق الرقة حيث يخترق الطريق العام في هذا المكان وادٍ عميق جداً وعليه جسر حجري ضيق ، وهذا الممر إجباري للذاهب من دير الزور إلى حلب وبالعكس ، فالإنعطافات والانحناءات وعندما وصلت السيارة العسكرية ، وكانت تقل ضابطان مهندسان فرنسيان برتبة مقدم (كومندان) هما فانيير وفيسكوكي ، وكانا قد وصلا إلى سورية من فرنسا لتفقد دوائر الإنشاءات العسكرية الفرنسية في سورية ولبنان ومعها سائقهما الفرنسي ، وجردهم من أسلحتهم واقتادهم مع سيارتهم إلى مكان جنوب مكان الحادث في البادية يسمى (العكيصية) وألقوا بهم مع سائقهم الفرنسي في أحد الآبار المهجورة حيث لفظوا أنفاسهم الأخيرة بعد أن غنموا أسلحتهم .

كان ذلك في مطلع شهر حزيران ١٩٢٥ ثم انسحبوا إلى شواطئ الفرات حيث الغابات الكثيفة والجزر النهرية التي تسمى في منطقة الفرات (بالحوايج) وهم يرددون الهوسات الحماسية :

ريعي دوم مونسين البر
عداية وجياية منسر
ريعي دوم يزيحون الشر
مسجين العدوان من المر
جيتك بام زنيد الفضة
خشم العايل بيها نرضى
والعادانا نفين حظه
غصب عن شيبه يطيع النا
جيتك بليلمع سركيها
حالف من دمك لرويها
هذا النشمي الحارب بيها
خلا مخ الراس منثر

((علمت الصحف أن جثتي القومندان فانيير ورفيقه قد وجدتا بين الرمال على ضفة الفرات))

((انقطعت أخبار الضباط عن القيادة العسكرية الفرنسية في حلب فجن جنونها ، وطيرت البرقيات إلى كافة المناطق للبحث عنهم ، وشرعت دوريات عسكرية تجوب المنطقة طولاً وعرضاً كما خرجت طائرات فرنسية للاستكشاف حيث عثر على السارة ومكان البئر الذي ألقي فيه الضباط وسائقهم ، ثم ما لبثت السلطات العسكرية أن اهتدت إلى أفراد المجموعة المسلحة فقبضت عليهم ، وكان عددهم اثني عشر رجلاً إحدى البائعات المتجولات .

((أعدم في حلب قتلة القائد ورفيقه على طريق الرقة))

وفي الثاني من أيلول ١٩٢٥ تشكلت المحكمة العسكرية واقتيد الأبطال إلى قاعة المحكمة وهم مصفدون بالحديد وهناك وقف المحامي فتح الله صقال للدفاع عنهم دون فائدة حيث اعترف الشجعان بما ورفعوا رؤوسهم عالياً في وجه الهمجية الفرنسية ، وكانت المحكمة الفرنسية حافلة بكبار الضباط الفرنسيين وبعض أهالي الثوار . اختلت المحكمة ساعتين كاملتين ولما عادت إلى قاعة المحاكمة لإصدار قرار حكمها اشرأبت الأعناق وأصغت الآذان لتسمع القرار الرهيب الذي قضى بإعدام كلاً من ١- محمود العياش ٢- عزيز علي العبد السلامة ٣- حاج علي العبد السلامة ٤- حمكي علي العبد السلامة ٥- حمزة العبد السلامة ٦- أسود الحمدان ٧ - اصلبي المسعود العبد الجليل ٨ - خلف الحسن المحمد ٩- أحمد الحسين الحسن (الملقب طعوس) ١٠ - حمد بن رديني ، وسجن محمد العياش وعبد الله الخلف الإبراهيم لمدة عشرين عاماً ، خرجوا من السجن بعد صدور قرار العفو من الفرنسيين عام ١٩٣٧ .

وفي ٥ أيلول نفذ حكم الإعدام الصادر عن المحكمة العسكرية الفرنسية رمياً بالرصاص في أحد الميادين العسكرية في شمال حلب حيث اخترقت أجساد الثوار ٤٤ طلقة في لمح البصر وحولتهم إلى جثث هامدة ثم كومت تلك الأجساد المضرجة بالدماء في عربة نقل عسكرية ذهبت بها إلى المستشفى العسكري ليصار إلى دفنها في مكان مجهول .

وقد ذكر المحامي فتح الله صقال في كتابة الصادر عن دار الضاد في حلب عام ١٩٥٨ (من ذكرياتي في المحاماة) هذه الحادثة تحت عنوان (إعدام بالجملة).

وهو الذي كان مكلفاً بالدفاع عن محمود العياش ورغم ما يظهره الصقال من ميل وتعاطف مع الفرنسيين إلا أننا مدينون له بحفظ هذه الوثيقة التاريخية التي حفظت لهؤلاء الناس وطنيتهم الصادقة والعفوية وأظهرت الحقيقة لأن المخابرات الفرنسية أرادت تشويه صور الثوار أمام مواطنيهم وإلصاق تهمة السرقة وقطع الطريق عليهم ولكن إرادة الله تظهر ولو بعد حين .

وهكذا انطوت صفحة رائعة من صفحات نضالنا العادل والمشروع سطرها شهداء الفرات بدمائهم الزكية التي امتزجت مع دماء أبناء شعبنا على امتداد الوطن وأثمرت تلك التضحيات عن الاستقلال وجلاء قوات المستعمر الفرنسي في ١٧ نيسان ١٩٤٦ .

د . محمود النجرس